العروسة

كانت الساعة تدق الواحدة ليلاً، صوت رتيب مكرر لا يتغير يملأ المكان، إنها ماكينة الخياطة، لقد أصبحتْ جزءاً من هذه الماكينة، جزءاً من هذا الجسد الحديدي الأصم.

توقفتْ فتوقف الصوت الرتيب، تعبتْ، أسندت رأسها إلى الماكينة، نظرت أمامها إلى الحائط حيث صورة زوجها الراحل، تنهدت، كان النفس عميقاً: تركتني وحدي.. الحمل ثقيل.. والحياة لا تتوقف.. ماضية لا تنظر خلفها.. تسرق القلوب والأبصار والعقول.. هذه الآلة تمنحني الأموال القليلة التي أسير بها في ركب الحياة اللاهث.

ولدان وبنت، من أجلهم تهون الدنيا، ويذبل الجمال، الولدان في المدرسة، البنت الصغيرة معها في البيت، الصغيرة تكره ماكينة الخياطة، تكره صوتها الرتيب، تعشق الرسم، تطلب الأوراق والأقلام من أخويها وتدفع ثمناً لها، دموعها الضعيفة، حتى يرق قلب الإخوة، الأم مسروقة بالعمل، لا تشارك الصغيرة اهتماماتها.

عشقت الصغيرة عروسةً ملقاة ضمن مجموعة من الكراكيب في الشرفة المقابلة تماماً لشرفتهم، أصحاب هذه الدار على سفر لا يعودون إلا نادراً.

كانت العروسة محشورة ضمن الكراكيب ووجهها نحو شرفة الصغيرة تماماً، وكأنها تنظر إلى الشرفة كل الوقت بابتسامة ثابتة، أحبتها الصغيرة لأنها تنصت لها باهتمام، تعلقت بها، أصبحت العروسة ـ والتي لا تملك الصغيرة مثلها ـ صديقتها الوحيدة، تحكي لها أحلامها، تحدثها عن أمنياتها، ما تحب وتكره، تشاهد العروسة كل رسومات الصغيرة، تستقبل الرسم بابتسامة فتعرف الصغيرة أن الرسم جميل. رسمت الصغيرة العروسة الباسمة خلف القضبان، هكذا تراها، فهي مثلها محبوسة خلف قضبان الشرفة.

الأجمل أن العروسة كانت تنتظر الصغيرة كل الوقت لا تتحرك، حتى في أحلك الأوقات وأسوأ الظروف، بنظرتها الثابتة وابتسامتها الحلوة، دائماً منصتة، كأنها عاشقة للصغيرة الجميلة، كانت الصغيرة تلتقي العروسة في أحلامها، تشتري لها الملابس الجديدة وتمسح عن وجهها التراب والسواد.

فجأة.. اختفت العروسة من الشرفة المقابلة، لم تجدها الصغيرة

في انتظارها هذا الصباح كالعادة، عاد أصحاب البيت، وذهبت العروسة بلا رجعة.

انهارت الصغيرة، بكت، كان البكاء مريراً، تلاشى طعم الصداقة العذب، غادرت الأم ماكينة الخياطة إلى حيث الصغيرة، حاولت أن تفهم، قضت اليوم كله مع الصغيرة تحاول أن تفهم، تحاول أن تعرف إلى أي مدى لم تتفهم الصغار، لم تشعر بهم، لم تشاركهم، الأولاد تشغلهم المدرسة وأصدقاء الدراسة، أما الصغيرة فليس لها سوى الجدران، هذه هي المساحة التي تتحرك داخلها، الشرفة وسيلة اتصالها الوحيدة بالعالم الخارجي، والعروسة هي كل العالم الخارجي وكل الأصدقاء وكل الأحلام.

نامت الصغيرة ليلاً باكية، لم يكن هناك أي لعبة أو عروسة تحتضنها، إنها طفلة بلا ألعاب، عالم خالٍ من معالمه.

عادت الأم إلى ماكينة الخياطة، لاحظت بجوار صورة الزوج الراحل ورقة بيضاء، انتزعتها بحرص، إنها رسم بالقلم الرصاص لعروسة خلف القضبان، كيف لم تلاحظ هذه الأوراق المعلقة هنا وهناك، نظرت حولها، على كل حائط صورة صغيرة، ورقة بيضاء تحمل أحلاماً طفولية ورسماً مُعَبِّراً، دمعت عيناها، آه.. يا

صغيرتي . . كم تجاهلتك ، تجاهلتك بأعوام عمرك الخمسة .

عادت إلى ماكينة الخياطة ، صنعت للصغيرة عروسة حلوة من بقايا الأقمشة ، عيونها أزرار زرقاء في مثل نقاء البحر . انتهت من صنع العروسة ، أمسكتها بين يديها ، قَبَّلتها ، احتضنتها ، لا تذكر آخر مرة قَبَّلت فيها أطفالها ، دخلتْ الغرفة حيث تنام الصغيرة ، وضعت العروسة بين ذراعيها ، ستكون أول شيء تراه في الصباح وأول جسر يربط بينها وبين الأم ، ستعبر عليه الصغيرة حتماً إلى عالم جديد .